

كلمة المطران جورج خضر
السبت ٣ كانون الاول ٢٠٠٥
دير البلمند ، غروب عيد القديس يوحنا الدمشقي.

باسم الآب والابن والروح القدس، آمين.

يا احبة، وددت أن أتأمل قليلا في وجه البار يوحنا الدمشقي فيما تعيدون له، وهذا دون أن يُهمل فكري أن بعضاً منكم هنا طلاب لاهوت .

إذا قرأتم المئة مقالة لقديسنا، ترون أنه قرأ كثيراً أو أنه قرأ معظم الآباء الذين سبقوه، ونسق اقوالهم وجعلها أول أنظومة في اللاهوت المسيحي. ولعلنا لهذا اخترنا اسمه اسماً للمعهد، لنوحي الى طلابنا أن نحوهم في الكلام الالهيّ هو نحوه. غير ناسين أن الرجل كان عابداً لله لَمَّا عاش في دمشق ثم لما انتقل الى دير القديس سابا في فلسطين، وترثم ورثم، وصلّى كثيراً في نسكه وترك لنا بعض القطع التي لا نزال نرددها في ليتورجياتنا. هذا لأقول إن اللاهوتي هو مَنْ خبر الله فتكلم عنه، او هو من صلّى فكتب. غير أنه لا ينبغي ان نسقط في التبسيط لنظنّ أن كل من صلّى بعض كلمات يحق له ان يكتب ما يريد. ففي هذا شطط ممكن، والتقوى لا تتحول بحدّ نفسها الى فهم.

ويريد بعض من الناس ان يغطّوا جهلهم العلمي بادّعاء التقوى. وأما انتم فمدعوون الى أن تصبحوا علماء بكل ما تدل عليه هذه المفردة من المنهجية ومن صرامة الفكر، ومن الغوص على اللغات ومن التزود من التراث. الجهلاء لكلمة الله ليسوا مدعوين الى الكهنوت. قيل للقديس يوحنا الذهبي الفم: هذا رجل نرشحه للكهنوت. سألهم: ماذا يعلم؟ قالوا: انه تقي. قال: إني لن أجعله كاهناً لأن التقوى حصّة الناس جميعاً. من لا يتكلم لا يصبح كاهناً. هذه هي القاعدة. ومعنى هذا انكم ستحيون مع الكتب، أجعلكم الاسقف كهنه أم لم يجعلكم، وهو غير مرغم على ذلك. التقدير يبقى له ولو صرتم دكاترة في اللاهوت، لأن الكهنوت يحتاج ايضا الى تقوى، والى ما فوقها، اذا صحّت الكلمة، يحتاج يا بني ان يكون قلبك عوسجة ملتهية كتلك التي تكلم من ضمنها الله. والله لا يتكلم من قلوب باردة او فاترة، والقلوب الفاترة بتقيها من فمه، كما قال الكتاب العزيز .

لن اعدّد كل المواد التي تعرفونها مثلي أو أكثر، ولكني أودّ أن اقول هنا إنّ الطالب هو كل شيء. لا تظنوا أن كل الأساتذة لامعون، اذ كل خمسين سنة او مئة يُنتج العالم الأرثوذكسي استاذ عقيدة عملاقاً. واما الأساتذة فإنهم يفتنون الكتب التي كانت قبلهم وظهرت في عصرهم ويلخّصونها ويعطونها، وهذا ليس فيه إهانة لأحد. ولكن المبدعين قليلون. الذين يلهبون الصدور ليس مثلهم كثير. اذا كل شيء هو الطالب. والطالب يلتهب او لا يلتهب، ويفهم او لا يفهم. ويدقق في أمور الله وفي كلماته. ويقول أحدهم إنه يغوص على قاموس مكتوب باليونانية القديمة ويطلع الى حضرة الله.

فالذي ليس عنده هذا الاستعداد للتبحّر في كل كلمة من كلمات الكتاب القيم، ويتدارسها بعناء كبير ليصل الى القصد الإلهي في هذه الدنيا ما أمكن الوصول، قد أخطأ العنوان. وقد يعرف هذا بعد سنة او سنتين او ثلاث او أربع. إنه ليس عيباً أن يتركنا ليحيا مسيحياً على أعلى درجة من التقوى، ولكنها ليست درجة من التكلم بالإلهيات. ومن نافل القول، اذا تتبعنا سيرة يوحنا الدمشقي أن نقول إنّ الذي لا يحس نفسه عائشاً بالعبادات ومن العبادات، فهذا أيضاً قد أخطأ العنوان وليس من عيب في أن يتركنا.

غير أنني أعرف قلة منكم. وهذه القلة، أعرفها مُحبة لله ومُحبة للتكلم بالإلهيات. وسلام عليكم في ما انتم تغوصون عليه وفي ما انتم تتعبدون. والعبادة والعبودية كلمة واحدة في العربية، ومعنى ذلك أنكم تستعبدون أنفسكم لله الآب والابن والروح القدس، مع أنّ المعلم الإلهي قال لن ادعوكم عبيداً فيما بعد، انكم ابناء. غير أنّ أحد النساك الكبار الذي جاب الأديرة في هذا الشرق، كتب أنّ الإنسان وهو ليس عبداً، بسبب من عشقه لله، يستعبد نفسه له. وهذا يأتي في حياتكم صلاةً وفكراً .

ألا كان الله معكم في المسعبين، آمين.